الآخر في شعر اقبال

د/تبسم منهاس
قسم اللغة الاردية وادبها
كلية الدراسات الانسانيه جامعة الازهر، فرع البنات

إن أهم ما يميز فكر العلامة محمد إقبال هو أنه فكر مستنير صقلته الدراسة المستفيضة لمنابع الثقافة الإسلامية التى تربى عليها منذ صغره، ثم دراسة الثقافات المغايرة التي يعتنقها من هم على غير ثقافته، وهو في الحالتين يعمل عقله وفكره، ويجعل الحق هدفاً لا يحيد عنه، ومن هنا وجدناه يبدي احتراماً وتقديراً للإنسان بصفة عامة، ويقدم أهل الحق كمثال يحتذيه الناس جميعاً، وربما كان الجانب الإنساني في أشعار إقبال هو أحد العوامل الهامة التي كتبت له القبول بين من طالعوا شعره، رغم اختلافهم معه في الدين واللغة والثقافة، إذ أن ما يميز شعر إقبال في الحقيقة هو احترامه الإنسان وتكريمه، وحثه على البعد عن الصراعات الممقوتة، والتي تنبع عن الإحساس الزائف بالتفوق لجنس على الآخر، فنراه يؤكد دائما على حقيقة أنه لا يوجد دين من الأديان يدعو إلى كراهيةالآخرين واحتقارهم، وأن الأرض لله تعالىٰ يملكها وحده لا غيره، وما الإنسان إلا مستخلف فيها، عليه أن يعمل على تعميرها، وإشاعة العدل والخير والسلام فيها، يقول في مقطوعة له بعنوان "الأرض لله"(١):

❁أيملك الحي تراب الثرى وجسمه عما قليل إلى تراب
❁ليست لي الدنيا وليست لكم فالعمر فيها مثل ومض الشهاب
❁الأرض لله وسكانها الكل منه وإليه المآب [٢]

ولهذا فإنه على الرغم من أن نسبة كبيرة من أشعار إقبال تناولت المسلمين من الشرق والغرب، ممن برزفيهم جانب من الجوانب الإنسانية الطيبة، وكان لهم تأثير واضح في أنشطة الحياة المختلفة، بل إن إقبال نفسه قد تأثر من بعض هؤلاء تأثرا عظيما، ولعب بعضهم دورا محوريافي حياته بحيث حدد معالم مستقبله، ووجهه الوجهة التي هو عليها، وهذا راجع في الحقيقة إلى خلو شخصية إقبال من التعصب، وإلى سعة الفكر لديه، حيث كان ينشد بناء الإنسان الحق، حتى المسلم نفسه، إذا لم يتصف بصفة الإنسان الحق، لفت إقبال نظره، وذكره بأن الإسلام دين الإنسانية، وأن المسلم إذا لم يتصف بالصفات الإنسانية الراقية، فإن هذا يعني أن هناك نقصا في إسلامه، وأنه لم يعرف الإسلام معرفة صحيحة.

وأكمل مثال في نظر إقبال هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي ينبغي اتباعه والاحتذاء به، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى، وإنما كل ما أتى به وحي من السماء، ولذا فإن اتباع سنته يضمن للإنسان الخير في الدنيا والآخرة، يقول إقبال:

إن وفيت لمحمد فنحن لك

ولك اللوح والقلم، وليس الدنيا فقط [٣]

ويقول:

* سترفع قدرك الأقدار حتى :: تشاهد أن ساعدك القضاء
* وقيل لك احتكم دنيا وأخرى :: وشأنك والخلود كما تشاء [٤]

وكل ما عدا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يؤخذ من كلامه ويرد عليه، والمعيار في ذلك هو الحق، وبقدر اقتراب الإنسان من الحق، بقدر ما يعتزبه إقبال، ويفرد له في شعره مكاناً، حتى قال:

• سأصبح عبداً لمن يحب عباد الله [٥]

ومن هنا لم يكن مستغربا أن يتناول إقبال في شعره شخصيات على غير دينه يقدر أصحابها، بل ويعتز بصداقتهم، ويحزن لفراقهم، لما اتسمت به هذه الشخصيات من صفات إنسانية راقية. وحب للخير لكل البشر، ومن هؤلاء "سوامي رام تيرتھ" الهندوسي الذي كان صديقا لإقبال، ونذر حياته لخدمة بلاده وأهلها، حتى اتهمه بعض الناس باختلال العقل والجنون حين استقال من وظيفته من أجل تحقيق الهدف الذي نذر حياته من أجله رغم أنه كان فقيرا، وعند ما سمع إقبال بهذا الاتهام قال: "لو أن هذا الرجل مجنون فإنه لا يوجد على ظهر الأرض عاقل" (٦). وبعد عمر لم يتعد الثالثة والثلاثين سنة زار خلالها اليابان وأمريكا ومصر مات غريقا في نهر "كنكا"، فرثاه إقبال بمقطوعة من ستة أبيات تحمل اسمه، وصفه فيها بأنه كالجوهرة التي يندر أن تجدلها نظيرا، وأنه بوفاته بهذه الطريقة كشف أسرار الحياة التي لا يعرفها الكثيرون، وأن قلبه عارف بالحقيقة، وأنه عاشق صادق، يقول:

• لقد عانقت النهر أيتها القطرة القلقة، كنت قبلا لؤلؤة، والآن أصبحت نادرا.

• آه، ما أجمل الطريقة التي كشفت بها سر الحياة، بينما أنا لم أفهمها إلى الآن.

• انتهى صخب الحياة، وصار ضجيج يوم الحشر، وانطفأت هذه الشرارة لتصير معبدا للنيران.

• نفي الذات معجزة القلوب العارفة، ولؤلؤة "إلا الله" كامنة في نهر "لا".

• ومعنى النهاية خاف على العيون غير البصيرة، فعندما يتوقف اضطراب الزئبق يصبح فضة خالصة.

إبراهيم العشق يحطم صنم الوجود، فكأن نشوة نهر تسنيم

دواء للشعور[٧]

ولم يقف اختلاف الدين والثقافة حائلاً دون هذا التواصل الذي لم يبلغ كون "سوامي رام تيرتھ" آخر، وإنما وضعه إقبال ضمن منظومة الإنسانية الراقية التي ينشدها.

كما تناول إقبال في شعره "سري رام جندر جي"، وامتدحه في مقطوعة بعنوان: "رام" من ستة أبيات، ذكر فيها أن الهند تفخربه، وأنه كان فارسا مغوارا شجاعا عفيفا يمتلئ حبا عشقا. يقول:

- كأس الهند ملئ بخمر الحقيقة، وخلبت الهند لب فلاسفة الغرب.
- ونتيجة لفكر الهنود الرفيع، صار سقف الهند أعلى من السماء.
- لقد عاش في هذا البلد آلاف من الأطهار،ذاع بفضلهم صيت الهند في العالم.
- تفخر الهند بوجود "رام" ويؤمن أهل البصيرة بأنه إمام الهند.
- إنه إعجاز مصباح الهداية هذا أن مساء الهند أكثر ضياء من الصباح.
- كان كحد السيف، متفرد في الشجاعة، ولا نظير له في العفة وصدق الحب. [٨]

ولكن هذا لم يمنع إقبال في منظومة له بعنوان "نيا شواله: المعبد الجديد" في صفحة (٢٠٤) من ديوانه (بانك درا) من أن يتوجه بالنقد إلى البراهمة وكهنة المعابد الهندوس عاتباً عليهم هذه العداوة التي يكنها البعض منهم لأبناء وطنهم "من المسليمن" إذ أنه بالحب وحده تطمئن قلوب أهل الأرض.

وتناول كذلك "كورو نانك" مؤسس الديانة السيخية، واصفا إياه بأنه أعاد إلى الهند ضياء المعرفة ثانية بعد أن فقدته عندما لم تلق بالا إلى تعاليم "كوتم بد ه"، وامتدحه مع "كو بد ه" أو "بوذا" في مقطوعة من

ثمانية أبيات قال فيها:

- لم يلق القوم بالاإلى رسالة "كوتم"، ولم يعرفوا قدر جوهرتهم.
- آه، لقد ظلوا تعساء في غفلة عن صوت الحق، كالشجر يظل غافلا عن حلاوة ثماره.
- لقد كشف لهم سرّ الحياة، لكن الهند وأهلها هائمون بفلسفتهم الخيالية.
- ليس هذا هو ذلك المحفل الذي أضاء ه شمع الحق ، لقد نزلت أمطار الرحمة، لكن الأرض غير صالحة.
- آه، إن الهندبيت أحزان للمنبوذين، ولا يعرف قلب هذا البلد العطف الإنساني
- البراهمة منتشون بخمر الغرور، بينما شمع "كوتم" ينير محافل الآخرين.
- لكن المعبد أضاء ثانية بعد مدة، وأضاء بيت آزر بنور إبراهيم.
- وتعالىٰ صوت التوحيد في النهاية من أرض البنجاب، وأيقظ الرجل الكامل الهند من الأحلام. (٩)

وتناول كذلك "كارل ماركس"، وتحدث عنه في مقطوعة من ثلاثة أبيات بعنوان "صوت كارل ماركس" يوجه فيها خطابه إلى العلماء والفلاسفة الذين يؤيدون الرأسمالية فيقول:

- قطع العلم والحكمة، وهذا الاستعراض للجدل، لكن الدنيا الآن لا تستسيغ عرض الأفكار القديمة.
- ما الفائدة من كتبك يا فيلسوف الاقتصاد، ليس فيها غير خطابات معقده، واستعراض زائف للتعاطف والمواساة.
- في معابد الغرب وكنائسهم ومدارسهم يخفي العقل المخادع مآسي الهوس والطمع. [١٠]

وقدم "ليننين" في أشعاره من خلال مقطوعة بعنوان "لينين في

حضرة الله" من اثنين وعشرين بيتا قص فيها على لسانه في الحضرة الإلهية مدى الظلم الذي يتعرض له العمال والفقراء في العالم، وأن الرأسماليين يمتصون دماء هذه الطبقات الكادحة، وأن العالم كله في انتظار تدخل القدرة الإلهية حتى تعيد الأمور إلى نصابها، ويعتدل ميزان العدل، يقول:

- أنت عدل، وأرى العمال في عيشة ضنك، وبؤس واكتئاب
- ورؤوس المال يجري فلكها فمتى يغرقها طامي العباب
- عالم الإنسان يا رب الورى في انتظار العدل من يوم الحساب [١١]

صحيح أن إقبال هاجم الشيوعية فيما بعد عند ما تكشف خطرها، وذلك لأن إقبال يدور في فلك الحق، ويعرف الرجال به.

هذا ونستطيع تقسيم حياة إقبال إلى مرحلتين رئيسيتين باعتبار تعامله مع الآخر واحتكاكه به. والآخر هنا نقصد به كل من كان على غير دين إقبال، وكذا كل ثقافة، أو حضارة تغاير ثقافة إقبال وحضارته، وربما دخل ضمن إطار "الآخر" من كان على دين إقبال وثقافته وحضارته، لكنه بعيد كل البعد عن الالتزام بالدين وتطبيق معطيات هذا الحضارة) والاعتزاز بها.

أما المرحلة الأولى، فهي التي تنتهي بعودته من أوروبا بعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٠٨م، وفي بداية هذه المرحلة لم يكن "الآخر" واضحاً في شعر إقبال الأردي، وذلك أمر طبيعي، إذ أنه لم يكن قد تعمق بعد في دراسة هذا الآخر، وبالتالي لم تكن فكرة مواجهة "الآخر" ومصارحته قد تبلورت بعد في فكره، وإنما انحصر "الآخر" عنده في شكلين أساسيين، أولهما: التأثر بهذا "الآخر" من خلال الاطلاع على الأدب الغربي وتأثره ببعض ما فيه أثناء عمله في الكلية الإسلامية كمدرس

للغة الإنجليزية، وبالتالي محاولة ترجمة هذا البعض إلى الشعر الأردي، وهو ما نراه في ترجمة بعض المنظومات لشعراء غربيين، ومن هذه المنظومات منظومة للشاعر الأمريكي "لانج فيلو (١٢)بعنوان " DAY BREAK "، وقد ترجمها إقبال تحت عنوان "بيام صبح: رسالة الصباح" وهي ترجمة حرة تجعل القارئ- إن لم يصرح إقبال بأنها ترجمة- يعتقد بأنها من نظم إقبال، وربما كان البيت الأخير من المنظومة هو الوحيد الذي يوحي بأنها مترجمة إذا قرأ بالتوازي مع نظيره من منظومة "لانج فيلو" (١٣).

ومن هذه المنظومات كذلك منظومة للشاعر "تيني سن" (١٤) بعنوان "LOVE AND DEATH" ، ترجمها إقبال بعنوان "عشق اور موت: العشق والموت" ، وهي ترجمة حرة كذلك، أجاد فيها إقبال أيما إجادة.

ومن هذه المنظومات أيضاً منظومة للشاعر الأمريكي "آر دبليو إيمرسن" (١٥) بعنوان " THE MOUNTAIN AND THE SQUIRREL"، وترجمها إقبال بعنوان "بهار اور كلهرى: الجبل والسنجاب". وهناك منظومات أخرى غير التي ذكرناها، أخذها إقبال عن شعراء غربيين في هذه المرحلة الأولى من حياته، وكلها مجرد تأثر مُما نظمه هذا "الآخر" من الغرب. وفي هذه المرحلة بالذات كانت هناك شخصية غربية أخرى أثرت في شخصية إقبال، وفي مجرى حياته وهو البروفيسير "توماس آر نولد" (١٦) الذي كان يدرّس لإقبال الفلسفة خلال دراسته في الكلية الحكومية في "لاهور"، وهو الرجل الذي تعلق به إقبال لدرجة جعلته يسعى حيثاً في السفر إلى أروبا "إنجلترا" وراء أستاذه

الذي كان قد بلغ سن التقاعد وعاد إلى وطنه عام ١٩٠٤م، وسوف نرى لهذا الرجل أثراً عظيماً على فكر إقبال ومسار حياته حين سافر إلى أوروبا، وتواجه فيها مع "الآخر" مواجهة مباشرة، ولذا لا نعجب حين نقرأ لإقبال منظومة في هذا الرجل كتبها شوقاإليه قبل أن يسافر هو إلى أوروبا لاستكمال دراساته العليا، وجاء ت هذه المنظومة بعنوان "ناله ء فراق: أنة الفراق" ووصفه فيها بأنه "قمة سيناء العلم"(١٧)

و لم يقتصر تأثر إقبال بالآخر في شعره في المرحلة الأولى على شعراء ومفكري الغرب فقط، وإنما تأثر كذلك ببعض ما عند الآخر في الشرق، ومثالنا على ذلك منظومته "آفتاب: الشمس" (١٨) المأخوذة من كتاب "الرجويد"المقدس في الهند القديمة، والتي ترجمت إلى العديد من لغات الغرب، وإن لم تصل إلى مستوى الأصل الموجود في اللغة السنسكريتية.

لقد سافرإقبال إلى أوروبا عام ١٩٠٥م، وعاد منها عام ١٩٠٨م بعد أن نال درجة الدكتوراه، وكانت هذه الفترة حاسمة في حياة إقبال وشعره، إذ رأى فيها هذا "الآخر" رأي العين، وعاش على أرضه وفي واقعه، ودرس حضارته وثقافته، ووصل خلالها إلى قناعتين هامتين، ثبت على إحداهما وتراجع عن الأخرى؛ فأما التي ثبت عليها فهيأنه وصل إلى يقين بأن الإسلام هو دين البشر كافة بحق، وأنه الدين القويم الذي يمنح- بالالتزام به- الفلاح في الدنيا والآخرة، فكرس حياته من بعد لخدمته والدعوة إليه.

وأما القناعة الثانية التي تراجع عنها إقبال فهي التي أشرنا إليها آنفاً، فهي أنه عندما وصل إقبال إلى لندن، وشاهد بنفسه ذلك الفارق

الكبير بين ما وصلت إليه إنجلترا من تطور وتقدم، وبين الحال التي عليها بلاده، وأخذ يبحث في الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، ودرس الفلسفات الغربية المختلفة مع دراسته للدين الإسلامي دراسة وافية، واكتشف أن الإسلام لا يمكن أن يكون سببا في تخلف أمة من الأمم، بل على العكس، فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى الأخذ بأسباب التطور والتقدم، والعمل على تسخير الكائنات، ولذا فإن السبب الرئيسي في حالة التراجع التي يعيشها المسلمون هو تخلي المسلمين عن تعاليم دينهم وهجرهم لأحكامه. عندئذ اعترت إقبال حالة نفسية من الصراع الداخلي، والحزن الشديد، حتى بدا له أن الشعر مضيعة للوقت والجهد، وأنه باعتباره أحد أفراد المجتمع الإسلامي، ومنوط به دور في تقدم هذا المجتمع، وعليه أن يقوم به، لذا قرر إقبال أن لا يقرب الشعر.

وفي تلك الأثناء كان "الشيخ عبدالقادر" مدير مجلة "مخزن" الأدبية- التي كان إقبال يكتب لها شعرا- في رحلة إلى بريطانيا، ويقيم في لندن، فلما أخبره إقبال بنيته في ترك قرض الشعر أصابت الشيخ صدمة كبرى، وأخذ يؤكد لإقبال أن شعره ليس من ذلك الشعر الذي ينبغي أن يترك، وإنما من الممكن أن يكون في شعره دواء للأمراض التي أصابت مجتمعه وأمته، ولذا عليه أن يواصل كتابة الشعر بما أعطاه الله من موهبة لا تتوفر إلا للندرة القليلة.

لكن إقبال لم يقتنع بقول الشيخ اقتناعا تاما، عندئذ كان لا بد أن يبحث الشيخ عن طريقة ما تثني إقبال عن قراره هذا، وإلا كانت الخسارة فادحة، ففكر حينئذ فيمن يمكن أن يكون له تأثير على إقبال، فلم يجد غير "السير توماس آرنولد" بما يعرفه عنه من شخصية قوية وحب لإقبال

؛ تـقدير له، وبما يعلمه كذلك من حب إقبال وتقديره له هو الآخر، فعرض الشيـخ عـلـى إقبـال أن يـرجئ تنفيذ قراره بترك الشعر حتى يستشير أستاذه "السير آر نولد"، واتفق "الشيخ عبدالقادر" مع إقبال على أن يتوقف القرار الأخيـر عـلـى مـا يقوله "آرنولد"، فإن اتفق رأي "آر نولد" مع رأي إقبال، تـرك الشـعـر، وكـرس وقتـه في عمل آخر يراه إقبال أكثر نفعا، أما إذا اتفق رأي "آر نـولـد" مع رأي "الشيخ عبدالقادر" فإن على إقبال حينئذ أن يلتزم به، وألا يترك الشعر مهما كانت الظروف ..... ووافق إقبال.

وجـاء رأي السيـد "آر نـولد" موافقا لرأي "الشيخ عبدالقادر" في أن شـعـر إقبـال عـمـل يـفـوق في أهميته كثيراً من الأعمال التي ربما يراها إقبـال أكثـر فـائـدة مـن الشعر، وكان موقفا له أكبر الأثر في مسيرة الشعر الأردي ورواجـه، ولـو لاه لحرمت الأمة الإسلامية من هذا الشعر الذي بث الـروح فـي مسـلـمـي شبـه الـقارة الهندية بشكل خاص حتى أخرجهم من يأسهم، وأعاد إليهم الأمل في الحياة، وخلق لهم وطنا مستقلا "باكستان" ولـحـرمت الإنسانية كلها من تراث أدبي رفيع المستوى. هذا وقد تحدث الـعـلامة إقبـال عـن أستـاذه "السير توماس أر نولد" في منظومة من خمس مقطوعات، كل مقطوعة من ثلاثة أبيات، وجاء ت تحت عنوان (ناله فراق "آر نـلد كي ياد مين": أنة الفراق "في ذكرى أر نولد")، وكتبها اقبال عام ١٩٠٤م، ونشـرت وقتهـا فـي مـجـلة (مـخـزن) عدد مايو ١٩٠٤م، وعلق عـلـيهـا إقبـال بـنفسه قائلا: "لقد ترك فراق أستاذي السيد آر نولد عليّ أثرا كبيـرا بـحيـث لـم يـنـعـم قـلبـي بعدها براحة أو سكينة، وذات يوم أتى بي الـخيال وأوقفني أمام بيته، وأنطقني هذه الأبيات التي اضطرني أحبابي إلى نشـرهـا. وعلى الرغـم من أن العديد من الجلسات قد عقدت توديعا له عند

رحيله ، وقدمت فيها العديد من القصائد والمنظومات، وهذه المنظومة كتبت بهذه المناسبة كذلك، لكن لأنها تحوي تأثري الشخصي والأليم برحيله، لذا رأيت من غير المناسب قراء تهافي جلسات عامة، هذا وقد ازداد حزني وشجني بعد رحيل (السيد آر نولد) كثيرا، وأنتج ذلك العديد من التغييرات في المنظومة ذاتها". يقول إقبال:

المقطوعة الأولى:

- أيها البيت، لقد رحل صاحبك في النهاية إلى الغرب واستقرهناك..... آه، لم تعجبه أرض المشرق.
- لقد تيقن قلبي اليوم من حقيقة أن ..... ضوء نهار الفراق ليس أقل من ظلام الليل.

☆ منذ أن تخيرت عيني حرقة الحيرة من حضن وداع المحبوب ..... نامت هذه الحرقة في عيوني مثل الشمع المنطفئة.

المقطوعة الثانية:

- أنا قتيل الوحدة، أضطرب من الزحام..... أخرج في ثورة الجنون من المدينة إلى الصحراء.
- أتعب القلب بذكرى أيام الأسلاف ... ثم آتيك مهرولا لأنال السكينة.
- ورغم أن جدرانك وأبوابك مألوفة لي... لكن الغربة تبدو من طريقتي وأسلوبي.

المقطوعة الثالثة :

- كادت ذرة قلبي تتعرف إلى الشمس ..... وكادت هذه المرآة المحطمة تعكس العالم بداخلها.
- وكاد نخيل آما لي يخضرّ ويينع ..... من كان يدري أنني كنت على وشك أن أصبح شيئا عظيما.

• لكن سحب الرحمة سحبت أذيالها من حديقتي ورحلت ..... أمطرت براعم قلبي قليلا ثم رحلت.

المقطوعة الرابعة:

☆أين أنت يا كليم قمة طور العلم ... كانت أمواج أنفاسك تزيد فرحة العلم .

☆أين ذلك الشوق الآن للهيم فى صحراء العلم .. جنون العلم فى رؤوسنا كان بفضلك .

☆أين ليلىٰ وجمالها لتخلق الجنون بها .. لنجعل تراب المجنون غبار قلب الصحراء .

المقطوعة الخامسة :

☆ستحل صحراء الجنون عقدة قدري..... وسأحطم وثاق البنجاب وأصل إليك.

☆ينظر البصر الحائر إلى صورتك..... ولكن كيف يطمئن القلب العاشق للقدر بالصورة.

☆فم الصورة لا يملك النطق، لكنه حديث الصورة ذلك الذي نسميه صمتا.

[١٩]

لقد درس إقبال في أوروبا، وعاش فيها ثلاث سنوات لمس خلالها مدى تقدمهم العلمي، وتفوقهم في مجالات الحياة، وفي الوقت نفسه رأى ما يحمله تقدمهم وتفوقهم هذا في طياته من نقائص وعيوب، وعلم أن هذه المدنية الغربية التي تجتاح العالم وتبهر أنظار أبنائه، تفتقد إلى الأساس المتين الذي يمكن أن يكتب لها السيادة والدوام، هذا الأساس هو الجانب الروحي، وحضارة الآلات تسحق تحت عجلاتها كريم الشيم

وجميل الخصال كما يقول إقبال نفسه:

☆ حكومة الآلات موت للقلب، فالآلات تسحق إحساس المروءة. [٢٠]

لقد أهملت المدنية الغربية ـ في نظر إقبال ـ الجانب الروحي، فكانت كمثل عشّ مبني على غصن واهن ضعيف، إن لم ينتبه له صاحبه، ويعمل على تقوية أركانه، واستكمال جوانب النقص فيه، فلا بدّ أنه سيسقط ذات يوم لا محالة. ولذا رأينا إقبال يحذر المسلم من الانبهار بهذه المدنية والانسياق الأعمى وراء ها، ويحثه على أن يكون محتاطا في التعامل معها، ولن يكون هذا إلا بأن يكون لديه وعي كامل بها، وأن يتعرف إلى ذاته ويكتشفها ويقدمها إلى العالم بشكلها الصحيح. ومن هنا هاجم إقبال بعض جوانب المدنية الغربية، وأعلن أنها ستقضي على نفسها بنفسها إن داومت على إهمال الجانب الروحي للإنسان، يقول إقبال مخاطباً الغربيين:

☆ يا أهل الغرب، إن أرض الله ليست دكانا، وما تعتقد ونه ذهبا خالصا سيفقد قيمته الآنا.

☆ سوف تنتحرمدنيتكم هذه بخنجرها، والعش الذي يبنى على غصن واه لا يدوم أبدا. [٢١]

ثم يشير في أحد أحاديثه في لندن عام ١٩٣١م أثناء اشتراكه في مؤتمر "المائدة المستديرة" إلى ما كان قد أعلنه في قصيدته سابقة الذكر التي كتبها عام ١٩٠٧م قائلا:

"إن أفدح خطأ ارتكبته أوروبا هو فصل الدين عن الدولة، فقد حرمت هذه الخطوة الخاطئة ثقافة الإنسان الأوروبى من الروح الخلقية، ووجهتها نحو المادية الإلحادية، وكنت قد اكتشفت عيوب

هذه المدنية قبل خمسة وعشرين عاما..... إن الحرب العالمية عام ١٩١٤م إنما كانت نتيجة محتومة لهذه الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها الشعوب الأوروبية من فصل الدين عن الدولة". [٢٢]

وبدا لإقبال حينئذ أنه لن يصادف في الغرب ما وجده في الشرق، فقال:

- لقد بحثت يا إقبال في أوروبا بلا جدوى ..... عن ذلك الشيء الذي تتميزبه الحسناوات في الهند [٢٣].

ورغم صحة كل هذا، إلا أنه لم يمنع إقبال أبدا من إبداء إعجابه بكثير من شخصيات الغرب ذات البعد الإنساني، فتناول الشاعر والمسرحي الإنجليزي المعروف "شيكسبير" (متوفى ١٦١٦م) في مقطوعة من سبعة أبيات بعنوان "شيكسبير" واصفا كتاباته بأنها مرآة لقلب الإنسا. يقول:

- جريان النهر مرآة لشفق الصباح، وصمت المساء مرآة لصمت المساء.
- وأوراق الورد لجمال عوارض الربيع، ودوران الكأس مرآة لمحبوبة الخمر.
- الجمال مرآة الحق، والقلب مرآة الجمال، وجمال كلامك مرآة لقلب الإنسان.

، وكمال الوجود من فكرك الذي يطاول السماء، فهل كانت فطرتك المضيئة هي مآل الوجود؟ !.

- عند ما بحثت عنك العيون المشتاقة، رأتك شمسا كامنة في ضوء الشمس.
- ظل وجودك محتجبا عن عين الدنيا، ورأت عينك العالم على حقيقة.

إن الفطرة تعشق إخفاء أسرارها، ولن تخلق عار فابالأسرار مثلك ثانية. [٢٤]

وتناول إقبال كذلك "نابليون" (متوفى ١٨٢١م)، إذ ألقى الضوء

على سعيه الدائب لكي يصبح شيئا ذا قيمة، حتى صار من أكبر قادة أوروبا العسكريين، وقد امتدح إقبال هذا الجانب فيه في مقطوعة بعنوان "على ضريح نابليون" من ستة أبيات قال فيها:

- قدر هذه الدنيا المليئة بالجهد والاجتهاد سرّ دفين، وأسرار القدر يكشفها حماس العمل.
- بفضل حماس العمل يشع سيف "الاسكندر" حرارة تذيب جبل "ألوند".
- بفضل حماس العمل عم سيل "تيمور" ما ذا تعني الارتفاعات والانخفاضات أمام السيل.
- بفضل حماس العمل يصير تكبير رجال الله صوت الله
- لكن فرصة العمل لمحات قليلة، وليالي القبر الطويلة عوض عن هذه اللمحات.
- إن نهاية مطافنا هي وادي الصمت، فارفع الصوت الآن في قبب الأفلاك. [٢٥]

كما تناول إقبال كذلك "نيتشه" الألماني المعروف الذي كان إقبال ـ رغم اختلافة مع نظرياته ـ يصفه بأنه "مؤمن القلب كافر الذهن" ويطلق عليه "درويش الإفرنجة"، وتحدث عنه في مقطوعة تحمل اسمه من ثلاثة أبيات قال فيها:

- لم يستطع الحكيم أن يفهم معنى التوحيد، إذ لا بد من البصيرة لفهم أسرار "لا إله".
- فكره الرفيع سهم في كبد السماء، وخياله لجام للشمس والقمر.
- رغم أن رهبنته عفة في فطرته، إلا أن فطرته تشتاق للذهب. [٢٦]

وكما هو واضح تركز تصور إقبال للآخر في تلك المرحلة على الغرب وحضارته، ولم يتعرض للآخر في بلاده شبه القارة الهندية بالرغم

من وجود ما يثير حفيظة إقبال بها، وذلك راجع في الغالب إلى أن إقبال في تلك الفترة لم يكن قد تخلص بعد من فكرة القومية الجغرافية والتي هاجمها فيما بعد عندما تكشفت له مساوئها، ولهذا كان يضع الشرق وحضارته في جانب، والغرب وحضارته في جانب آخر، وبالتالي وجدناه يمتدح الهند وحضارتها، ويكتب النشيد الهندي (٢٧)، والنشيد الوطني لأطفال الهند (٢٨)، والمعبد الجديد (٢٩)، حيث كانت نظرته نظرة كلية تخلو من التفاصيل، وهو ما تغلب عليه إقبال فيما بعد حين از دادت ثقافته عمقا، ومشاهداته اتساعاً، فأصبح تعامله مع "الآخر" عندئذ محدداً، وصارت نظرته إليه فيما بعد أكثر دقة ووضوحاً.

وأما المرحلة الثانية فتبدأ بعد أن عاد إقبال إلى الهند، وتبلورت أفكاره، واتخذت شكل فلسفة منظمة ذات عناصر واضحة، وهدف أكثر وضوحاً، وكان هذا الهدف هو إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها العميق، وحثهم على الرجوع إلى دينهم، واستعادة أمجادهم. هذا وقد اعتمد إقبال في سبيل تحقيق هذا الهدف على ثلاثة عناصر أساسية، أولها: تذكير المسلمين بالأمجاد الضائعة. وثانياً: زرع الأمل في قلوبهم من أجل المستقبل المضيئ الذي سيقبّل أقدامهم إن هم رجعوا إلى دينهم. وثانياً: حمايتهم، والحفاظ عليهم من الانبهار بأي بريق مؤقت قد لا يكون له أصل من الحقيقة في كثير.

ومن هنا تحدث اقبال عن الأندلس، وقرطبة، وبغداد، ودهلي، والحجاز، وكتب نشيد الأمة الذي قال فيه:

الصين والعرب لنا..... نحن مسلمون، وسائر الدنيا وطن لنا.

أمانة التوحيد فى صدورنا..... وليس من السهل محو آثارنا. [٣٠]

ثم كتب "شكوى" و "جواب شكوه"، حاول فيهما تحديد

الأسباب التى أدت الى تراجع المسلمين وتخلفهم عن غيرهم، فقال فى ''شكوى'' ما ترجمه الشيخ الصاوي علي شعلان كالتالى:

قيثارتى ملئت بأنات الجوى
لا بد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتي لواعج مهجتى
ليبين عنها منطقى ولسانى
أنا ما تعديت القناعة والرضا
لكنما هى قصة الأشجان
يشكولك اللهم قلب لم يعش
إلا لحمد علاك فى الأكوان

وقال في ''جواب شكوى'' ما ترجمه الشيخ الصاوي كذلك فيما يلي:

عطايانا سحائب مرسلات
ولكن ما وجدنا السائلينا
وكل طريقنا نور ونور
ولكن ما رأينا السالكينا
ولم نجد الجواهر قابلات
ضياء الوحي والنور المبينا
وكأن تراب آدم غير هذا
وإن يك أصله ماء أوطينا
ولو صدقوا وما في الأرض غير
لأجرينا السماء لهم عيونا [٢١]

ولم يفقد إقبال الأمل في أن يتحرر المسلمون من قيودهم، ويعودوا إلى سابق مجدهم، ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، وإنما كان نابعاً من إيمانه بأن الإسلام هو أقوى محرك لدفع الإنسان إلى النهوض والتقدم من أجل خير بني البشر، ولذا فقد كتب منظومته الرائعة "طلوع إسلام" يبشر فيها بنهضة المسلمين، وبمقدرتهم على بناء عالم جديد، يقول إقبال فيما ترجمه الشيخ شعلان:

تبشرني النجوم إذا توارت لدى الأسحار بالفجر الوليد
كأن خفوت ضوء النجم ليلاً يبشر اليمن باليوم الجديد
مضى النوم الثقيل عن المآقي ونور الشمس آذن بالشروق
هب الشرق منتبهاً وثارت عزائمه دماءاً في العروق
فإن عصفت بنا الدنيا فإنا على درب المسيرة دون يأس
فناء الأنجم الغراء بشرى بمولد كوكب وشروق شمس [٣٢]

ولم يكن هذا الإحساس مبنياً على رد فعل تجاه تقدم "الآخر"، أو حتى استغلاله غير المشروع لبلاد المسلمين وأبنائها، وانما كان ثقة فى أن الاسلام هو الذى يفرض نفسه بما يضم من قيم فى التسامح والمساواة واحترام الانسان وقبوله "الآخر" حتى وان اختلف معنا ديناً وثقافة، أو لوناً وعرقاً، إذ أن التعصب يمزق بني الإنسان، ويجعل من كل منهم عدواً للآخر، رغم أن الأساس هو "لا إكراه في الدين" و "لكم دينكم ولي دين"، يقول إقبال فيما ترجمه الشيخ شعلان:

أرى الأطماع فرقت البرايا إلى شيع كقطعان البوادي
يمزق بعضهم في الحرص بعضاً وكلهم لكلهم أعادي
تعصب بعضهم للون جهلاً وللإقليم والدم والقبيل

بـمـانشر البلايا فى البرايا وعم الخلق جيلاً بعد جيل
ومـصدر فطرة الإسلام حقاً وشر عتها لكل المسلمينا
إخـاء ينظم الأقطار عقداً ويحتضن الخلائق أجمعينا [٣٣]

وبهـذه الـروح التـى تـكـن حبـاً لبـنى البشر طالما احترم كل منهم الآخـر، وبهذه النظرة التى تساوى بين بنى الانسان طالما تخلص كل منهم مـن تـعـصبـه وضيق أفقه، تناول اقبال فى أشعاره الأردية شخصيات عديدة ممـن يـمثـلـون "الآخـر" سـواء مـن الشـرق أو الغـرب، واتّصف أصحابها بـالـعـمـل على خدمة البشر وتقديم النافع لهم، وتأثر إقبال بهم، وأفرد لهم مكاناً فى فكره،

وفـى الـنهاية فإننا لا نبالغ إذا قلنا بأن إقبال كان يتمنى عدم وجود مثـل هـذه التـفـرقة بيـن "أنـا" و "الآخـر"، وظـل يـأمـل لـو انتهـت هـذه الازدواجية، لأنهـا سبـب الـعـداوة، فالتفرقة بين "أنا" و "الآخر" تنبع أولاً مـن الاعتـقـاد بـأن "أنـا" أفـضل من هذا "الآخر"، ويكون التعصب هو أول ثـمـار هـذا الاعتـقـاد، فـالتـفـرقة فـي نظر إقبال شجرة، وثمارها التعصب، والتعصب هو الثمرة التى أخرجت آدم من الجنة.

هوامش

١ ـ كليات اقبال ـ بال جبريل ـ ص: ١٢٢.
٢ ـ المرجع السابق ـ الصفحة السابقة.
٣ ـ بانك درا ـ جواب شكوى ـ ص ٢٤٧، والبيت هو:
کی محمد سے وفا تو نے تو ہم تیرے ہیں
یہ جہاں چیز ہے کیا، لوح وقلم تیرے ہیں

٤ ـ د/ أمجد حسن سيد أحمد، د/ إبراهيم محمد إبراهيم ـ شاعر الشرق محمد اقبال ـ ص ٦٩ ـ القاهره ١٩٩٧م.

٥ ـ كليات إقبال ـ بانك درا ـ ص ١٤١، والبيت هو:

میں اس کا بندہ بنوں گا جس کو خدا کے بندوں سے پیار ہوگا

٦ ـ كليات اقبال ـ بانك درا ـ ص: ١٢٣.

٧ ـ المرجع السابق ـ الصفحة السابقة.

٨ ـ كليات اقبال ـ بانك درا ـ ص: ١٨٩.

٩ ـ كليات اقبال ـ بانك درا ـ ص: ٢٥٣.

١٠ ـ كليات اقبال ـ ضرب كليم ـ ص: ١٤٩.

١١ ـ كليات اقبال ـ بالِ جبريل ـ ص: ١٠٩.

١٢ ـ ولد لونج فيلو في بورت لاند بأمريكا عام ١٨٠٧م، وعمل أستاذاً للأدب في مختلف المعاهد العلمية، وتوفي عام ١٨٨٢م، وأكثر أشعاره في الأخلاقيات، كان في ذاته إنساناً حسن الخلق طيب القلب، ويحكى عنه أنه خرج إلى الصيد ذات مرة، واصطاد حيواناً، فتأثر بمنظر دمائه وموته حتى قطع على نفسه عهداً ألايقرب الصيد بعدها. انظر: غلام رسول مهر ـ مطالب بانك درا ص ٥٨.

١٣ ـ والبيت هو:

It crosse the churchyard with a sigh

And said: not yet! in quiet lie

فترجمها إقبال هكذا:

سوئے گورِ گریاں جب گئی زندوں کی بستی سے

تو یوں بولی نظارا دیکھ کر شہر خموشاں کا

ابھی آرام سے لیٹے رہو، میں پھر بھی آؤں گی
سلادوں گی جہاں کو، خواب سے تم کو جگاؤں گی

الترجمة العربية:

عند ما وصل نسيم الحياة إلى قبور الفقراء ما رأ بقرى الأحياء، ورأت منظرها قالت:

لتبقوا أنتم نائمين فى هدوء، سأعود ثانية، سأجعل الدنيا تنام، ثم أو قظكم أنتم من نومكم.

انظر: كليات إقبال۔ بانك درا۔ ص ٨٨.

١٤ ۔اللورد تينى سن من أكبر شعراء بريطانيا، ولد عام ١٨٠٩م، وتوفى فى أكتوبر عام ١٨٩٢م، وقد نشرت ترجمة اقبال هذه فى مجلة مخزن، عدد نوفمبر ١٩٠٣م، وكانت فى بدايتها تضم تسعة وعشرين بيتاً، المنظومة فى بانك درا ص ٦١.

١٥ ۔ هو الفيلسوف والشاعر الأمريكى ايمرسون، ولد عام ١٨٠٣م، وتوفى عام ١٨٨٢م.

١٦ ۔كان السير توماس آرنولد أستاذاً للفلسفة فى كلية على گڑه، ثم انتقل إلى الكلية الحكومية بلاهور، وعاد إلى بلده عام ١٩٠٤م ، وتوفى عام ١٩٣٠، ومن أشهر ما كتب "تبليغ الإسلام". ومنظومة نالهء فراق نشرت فى مجلة مخزن عدد مايو ١٩٠٤م، وكانت فى بدايتها ثمانى مقطوعات، ثم حذف منها إقبال ثلاث مقطوعات عند مراجعتها، والمنظومة في بانك درا ص ١٠٤،

١٧ ۔ البيت المقصود هنا هو قوله:

تو كہاں ہے اے كليم ذروہء سينائے علم

تھی تری موجِ نفس بادِ نشاط افزائے علم

الترجمة:

أين أنت يا كليم قمة سيناء العلم، كانت أمواج أنفاسك تزيد فرحتي بالعلم وتحمسي له.

١٨ ـ كليات إقبال ـ بانگ درا ص ٧٤، وقد نشرت آفتاب في مجلة مخزن عدد أغسطس عام ١٩٠٢م، وهي ترجمة لدعاء مشهور من كتب الرجويد الأربعة.

١٩ ـ كليات اقبال ـ بانگ درا ـ ص : ٨٨.

٢٠ ـ كليات اقبال ـ بالِ جبريل ـ ص : ١١١.

٢١ ـ كليات اقبال، بانگ درا ـ ص ١٥١.

والأبيا هي:

دیارِ مغرب کے رہنے والو، خدا کی بستی دکان نہیں ہے
کھرا جسے تم سمجھ رہے ہو وہ اب زرِ کم عیار ہوگا
تمہاری تہذیب اپنے خنجر سے آپ ہی خودکشی کرے گی
جو شاخِ نازک پہ آشیانہ بنے گا، ناپیدار ہوگا

٢٢ ـ غلام رسول مهر ـ شرح بالِ جبريل ـ ص : ١٥.

٢٣ ـ اصل البيت هو:

میں نے اے اقبال، یورپ میں اسے ڈھونڈا عبث
بات جو ہندوستان کے ماہ سیماؤں میں تھی

٢٤ ـ كليات اقبال، بانگ درا ـ ص: ٢٦٣.

٢٥ ـ كليات اقبال ـ بالِ جبريل ـ ص : ١٥٥.

٢٦ ـ كليات اقبال ـ ضرب كليم ـ ص : ٩٧.

٢٧، ٢٨، ٢٩ كليات اقبال ـ بانگ درا ـ ترانه هندی ـ ص ١٠٩، هندوستانی بچون کا قومی کیت ـ ص ١١٣، نیا شواله ـ ص ١١٤.

٣٠ ـ كليات اقبال ـ بانگ درا ـ ترانه ملی ـ ص ١٨٦، وتبدأ بالبيتين التاليين:

چین وعرب ہمارا، ہندوستاں ہمارا
مسلم ہیں ہم، وطن ہے سارا جہاں ہمارا
توحید کی امانت سینوں میں ہے ہمارے
آساں نہیں مٹانا نام ونشاں ہمارا

وترجمة الشيخ الصاوي علي شعلان رحمة الله عليه كاملا، وننقل بعضه هنا على سبيل المثال:

الصين لنا، والعرب لنا والهند لنا والكل لنا
أضحى الإسلام لنا ديناً وجميع الكون لنا وطنا
توحيد الله لنا نور أعددنا الروح له سكنا
الكون يزول ولا تمحى في الدهر صحائف سؤددنا
بنيت في الأرض معابدها والبيت الأول كعبتنا

٣١ ـ شاعر الشرق محمد اقبال ـ شكوى ـ ص ٥٦، وجواب شكوى ـ ص ٦٢. ولمنظومتان في ديوان بانگ درا ص ١٩٠ وص ٢٢٧.

٣٢ ـ شاعر الشرق محمد اقبال ـ طلوع اسلام ـ ص ٩١، والمنظومة في ديوان بانگ درا من كليات إقبال ص ٢٩٧.

٣٣ ـ شاعر الشرق محمد إقبال ـ طلوع اسلام ـ ص ٩١.

فهرست المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم

٢ـ الصاوى على شعلان ـ ديوان إقبال ـ القاهرة ـ مصر ١٩٢٦م

٣ـ د/ أمجد حسن سيد أحمد ـ د/ إبراهيم محمد إبراهيم ـ شاعر الشرق محمد اقبال ـ القاهرة ـ مصر ١٩٩٧

٤ ـ كليات اقبال "اردو" ـ لاهور ـ باكستان ١٩٧٧م.

٥ ـ غلام رسول مهر ـ مطالب بانگ درا ـ لاهور ـ باكستان ١٩٨٧م

٦ ـ غلام رسول مهر ـ مطالب بالِ جبريل ـ لاهور ـ باكستان ١٩٨٧م

٧ـ د/ سليم اختر ـ تاريخ ادب اردو ـ لاهور ـ باكستان ٢٠٠٠م.

٨ـ نسيم قريشي ـ اردو ادب كي تاريخ ـ علي گڑه الهند ١٩٧٨م.

٩ ـ مفتي شوكت علي فهمي ـ هندوستان پر اسلامي حكومت ـ دهلي ـ الهند ١٩٩٤م.

١٠ ـ د/ أحمد محمود الساداتي ـ تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ـ القاهرة ـ مصر ١٩٥٤م .

١١ ـ د/ أحمد محمود الساداتي ـ تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ـ القاهرة ـ مصر ١٩٧٩م.

١٢ ـ د/ إبراهيم محمد إبراهيم، د/ أحمد محمد أحمد، الشعر الأردي الحديث والمعاصر ـ القاهرة ـ مصر ٢٠٠٣م.

١٣ ـ د/ إبتسام صالح الدين ـ الشعر الأردى منذ البداية ـ القاهرة ـ مصر ١٩٩٧م.

١٤ ـ د/ غلام حسين ذوالفقار ـ اردو شاعري كا سياسي وسماجي پس منظر ـ لاهور ـ باكستان ١٩٦٢م.